الفصل التاسع

هل تخاف ميولك الجنسية؟

عندما نشر دكتور (ألفرد كنزي) وزملاؤه مجلده الشهير (السلوك الجنسي) [٧]، كان صداه بمثابة قنبلة انفجرت فهزت الضمير الأمريكي هزًّا زعزع أركان الإيمان بالأسس الخلقية التي عليها شيدت أسمى المبادئ وأنبلها. وقد تبع صدوره عشرات الكتب والمقالات والتقارير نشرها أساتذة وكتاب تعليقًا عليه، وإسهابًا في الكلام عن المسائل الجنسية وأثرها في الحياة الأمريكية الحديثة.

ولا يسع من يقرأ هذا المجلد الضخم قراءة سطحية إلا أن يصل إلى نتيجة واحدة؛ هي أن أكثرية الشعب الأمريكي شبق أو شهواني فاسق أو داعر، أو منحرف جنسيًّا.

ولست أريد هنا أن أناقش الحالات التي ذكرها دكتور كنزي أو أن أطعن في إحصاءاته. ولكني أريد أن أقرر أن الاختبار قد علمني بوصفي

---

(٧) المترجم– نشر هذا الكتاب كنزى وأعونه من جامعة أنديانا بهية من مؤسسة كبيرة، في مجلدين أحدهما عن الرجل الأمريكى والآخر عن المرأة الأمريكية، بين الأول والثانى فترة قدرها ١٢ سنة، ولما ظهر المجلد الثانى في أواخر سنة ١٩٥٣، بيع منه مليون نسخة في الأسبوع الأول، بالرغم من أن ثمنه ٣ جنيهات مصرية تقريباً.

طبيبًا الكثير من المسائل الجنسية والدور الذي تمثله في حياة الأغلبية الساحقة من المرضى؛ فهناك نسبة كبيرة من المرضى الذين يشكون من أوهام ووساوس تتعلق بهذه المسائل.

وقد استرعى أنظاري العدد الفقير من المرضى– رجالًا ونساءً الذين كانوا ولا يزالون، يعترفون لي أنهم يخافون من ميولهم الجنسية وما يتعلق بها. وأنني أعلم يقينًا أنني لست الوحيد بين أطباء الأمراض العقلية الذين يجدون هؤلاء المرضى أغلبية تكاد تكون ساحقة. ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل أن أولئك الذين يجبنون أمام رغباتهم الجنسية ويستحيون ويترددون ويخافون أضعاف أولئك الذين اتصفوا بالجشع في إرضاء شهواتهم، ومن يوصفون بلقب (دون جوان)، ومن اشتهروا باللواط من الرجال وبالسحاق من النساء، ومن يتصلون جنسيًّا بالحيوانات، على كثرة هؤلاء وأولئك. ويذكر (أرنست جروفز) أستاذ علم الاجتماع في جامعة كارولينا الشمالية، في كتابه (الزواج) سبعة عوامل هامة في قيام المشاكل الزوجية من الناحية النفسية وقد وضع في مقدمتها، الاشمئزاز من المسائل الجنسية، ومما ذكره في هذا الشأن قوله: (الاشمئزاز بين النساء أكثر انتشارًا منه بين الرجال، ومع ذلك فالكثير من الرجال يشوبهم هذا العيب ويعزى السبب في كثير من الأحوال إلى الكيفية التي عولجت بها المسألة الجنسية لأول مرة في الحياة الزوجية). ويلي الاشمئزاز بين الأسباب السبعة– كما تدل على ذلك دراسة دكتور جروفز– الخوف من الحمل والشعور بالإثم.

ميول جنسية في أجازة...

متى كان الرجل منهك القوى العصبية وقد هبطت طاقته إلى الدرجة التي يشعر فيها بالخوف والقلق والضجر بالحياة وعدم الارتياح، وشدة الاهتمام بأحاسيسه فلا مندوحة من عجزه عن الاستمتاع بحياة جنسية راضية. والرجل الذي لا يطمئن إلى عمله أو يساوره الهم لمرض في قلبه أو معدته، سواء كان ذلك حقيقة أو وهمًا قد يكون شديد الولع بزوجته يحبها حبًّا جنونيًّا ولكنه مع ذلك يعجز عن رغبة الاتصال بها جنسيًّا أو بأي امرأة سواها. التعب الذي يصيب الجهاز العصبي يقتل الميل الجنسي كما يقتل الصقيع الزهرة. فإذا تعمق هذا التعب في نفس المصاب به، تمكن منه الخوف من المسائل الجنسية، كما يتمكن منه الخوف من الجراثيم أو الأماكن الضيقة أو غيرهما من أنواع المخاوف المرضية.

وبهذه المناسبة أُشير على القارئ أن يرجع إلى حالة الضابط التي أسهبنا في سردها في الفصل السالف، ويقرأ ما قاله عن الفتاة التي أحبها والتي اضطر أن يعدل عن الزواج منها، لأنه شعر (أنه ليس كفؤًا جسميا للزواج).

لم يكن هذا الشاب مصابًا بشذوذ جنسي أو ضعيفًا أو دون المتوسط في قوته الجنسية ولم تكن عنده (عقدة الأمومة) التي يقال إنها تسبب اضطرابات جنسية. إن علته كانت التعب العصبي الذي ملأ ذهنه بالوساوس، وفي مقدمته أنه ليس كفؤًا من الناحية الجنسية للزواج. كان

مغرمًا بفتاته ولكن تركيز أفكاره في نفسه جعلت غرامه معيبًا مشوبًا. وقد أدى به الخوف إلى النظر إلى الحياة بمنظار أسود؛ ففقد كل أمل في السعادة وبهجة العيش وخشي الزواج ومسؤولياته.

كذلك المريض الذي سردت قصته في الفصل السادس، قص علينا كيف أنه كان لا يحاول أن يحدث فتاة إلا ويشعر أنه عصبي المزاج، فيتصبب العرق من جبينه ويخفت صوته، فلا يجد ما يقوله لها. وحينما كان في خدمة الجيش ذكر لنا كيف أنه كان يود لو أمكنه التعرف على فتاة كسائر زملائه، ولكنه كان لا يعرف السبيل إلى ذلك أو كيف يجرؤ أن يخاطبهن لا يعرف، أو ماذا يقول لها إذا ما عرفها. ولما شرع في قراءة كتب علم النفس رغبة منه في تفهم حالته، كان مما فكر فيه أن سبب خجله وفشله أنه مصاب بشذوذ جنسي، إذ لم يجد غير هذا التعليل ما يعزى إليه نفوره من الجنس اللطيف. ومما قاله بهذه المناسبة إنه لام والدته على تنشئته تنشئة خاطئة، ولام والده لأنه سمح لها بذلك، وعندما جاء لاستشارتي كان بين ما أراد الوقوف عليه مني أن أصارحه إذا كان به شذوذ جنسي. وكان يخشى هذا الداء بعد أن قرأ عنه في كتب علم النفس وما ساوره من الشك في أن يكون مصابًا به. وقد أبنت له كيف أنه سيشعر برجولته ويكف عن التفكير في أمر هذا الشذوذ بمجرد شفائه من المرض.. وقد بررت بوعدي فعلًا.

ومما لا ريب فيه أن الجرأة في العلاقات الجنسية تكتسب بالخبرة والمران؛ فإمعان الشاب في الخجل والحياء ينفر منه خطيبته وشريكته في

المستقبل. وفضلًا عن ذلك يدفعها خجله إلى زعزعة ثقتها بنفسها. فقد يتطرق إلى ذهنها أن افتقارها إلى الجاذبية الجنسية هو سبب تمنعه وحرصه على عدم رفع الكلفة. وكم من فتاة رفضت يد شاب دمث الأخلاق، شديد الذكاء، كان يمكن أن تكون أسعد زوجة معه وآثرت عليه آخر لا مزية فيه سوى ما نقص سابقه من جرأة!!

عدم التوافق بين الأزواج...

من الأزواج الذين يخلصون لزوجاتهم ويتفانون في حبهن من يساورهم الخوف كلما اتصلوا بهن اتصالًا جنسيًّا وينتهي أمرهم بالإصابة بالعنة. كذلك من النساء من يساورهن الخوف للسبب عينه فيحرمن من الاستمتاع بالحياة الزوجية الكاملة.

إن استنزاف الطاقة من الجهاز العصبي لا يترك مجالًا للميول الجنسية أو على حد تعبير أحد المرضى (متى تعبت الأعصاب رحلت الرغبة الجنسية في أجازة).

وهذه قصة السيدة (م) التي جاءت تشكو من مرض طال أجله. حاولت أن ترجع بذاكرتها إلى بدء هذا المرض، فقالت أنه ظهر عقب فترة توتر وقلق بسبب حادث وقع لابنها وتجنيد زوجها للخدمة العسكرية وتسبب عن هذين الحادثين أن تراكمت عليها الأزمات المالية والحدة والمرض، فنقص وزنها وفقدت كل لذة في الحياة. وهذه سيرتها ترويها بنفسها:

(كنت كلما غادرت البيت لقضاء حاجة انتابني قلق شديد يضطرني إلى العودة وكنت لا أُطيق البقاء في السينما أكثر من دقائق، فأسارع في الخروج في الوقت الذي يعرض فيه أبدع فصول الرواية والفزع يرعبني والمعدة تغوص بي إلى حيث لا أدري، والذهن يخلو من كل ما شهدته على الشاشة ويصبح صفحة بيضاء لا أثر فيها للماضي. وكنت بعد ذلك آوي توا إلى فراشي أملًا في تهدية أعصابي. وكثيرا ما كانت تصحب هذه الأزمات ميوعة وإغماء وإسهال. وكان مجرد تفكيري في الخروج لشراء لوازمي من السوق يعيد إلي هذه الأزمات. وأصبح مستحيلًا أن أقف في حانوت تاجر انتظارا لدوري، فاتفقت مع كل من القصاب والبدال أن يقضي حاجتي قبل غيري نظرا لحالتي الخاصة. ومع كل هذا كان لا يفارقني الخوف والاضطراب في خلال هذه الدقائق لتغيبي عن البيت وشدة الشعور الذي يدفعني لسرعة العودة وقد اضطررت أخيرًا أن ألجأ لكل حيلة ممكنة لأحمل الآخرين على شراء حاجاتي لي تهربًا من الخروج).

(وكنت شديدة القلق على زوجي.. لقد مضى على زواجنا ١١ سنة، وكانت كل الظروف تهيئ الطريق أمامنا للسعادة، سوى شيء واحد، اختلاف الدين؛ ذلك أنني إسرائيلية وزوجي مسيحي كاثوليكي المذهب. وقد كان كل من أهلي وأهله غير راضٍ عن زواجنا منذ إعلان الخطوبة لهذا السبب. وكانت أسرتي لا تقل مقاومة لهذا الزواج عن أسرته. وكانت كل من الأسرتين تؤكد لنا سلفًا أن هذه الشركة لن تكون سعيدة ولن تأتي بنتائج حسنة وقد كانت هذه التنبؤات منذ ذلك الحين بمثابة تهديد لا يزال سيفه مسلولًا فوق رأسي إلى هذه الساعة. وكان يبدو لي أن كلينا قد أخطأ

في الإقدام على الزواج. وخطر ببالي أنني إذا تعهدت أمام الله أنني لن أعيش معه بعد ذلك، فقد يعود من الحرب سالمًا ولن يتعرض لخطر القتال. وفضلا عن ذلك، فإن هذا القرار يعيد المياه إلى مجاريها بيني وبين والدتي وشقيقاتي).

(أخيرًا عاد زوجي من الميدان سالمًا. فبدا لي أن هذا دليل قاطع على أني كنت محقة في العهد الذي قطعته على نفسي. وفعلًا امتنعت عن كل اتصال جنسي معه. ولكني لم أجرؤ في بادئ الأمر أن أخبره بالسبب الحقيقة، بل تذرعت بمبررات أخرى كالمرض والتعب. وكان رده على ذلك أنه أخذ يمازحني. وقال لي مرة: (لقد افترقنا طويلًا وربما كان عسيرًا عليك أن تعودي إلى الحياة السابقة بهذه السرعة. فلنرجئ المسألة إلى أن يسعى أحدنا إلى الآخر). وقد كنت أشعر أحيانًا برغبة ملحة تدفعني للسعي إليه، وكنت موقنة من أنه هو كذلك وأنه في انتظار إشارة مني. بيد أن هذا كان مستحيلًا علي كنت خائفة وكنت أحذر نفسي من استئناف العلاقة الجنسية معه؛ تجنبًا لما قد يترتب على هذا من الأضرار التي قد تقع عليه أو على ابننا، فضلًا عن استحالة العودة إلى أسرتي وقطع علاقتي بها إلى الأبد. وهكذا كانت حياتي بعيدة كل البعد عن السعادة وباتت خشيتي من الخروج من البيت أشد وطأة مما كانت وكنت انتهز فرصة وجودي وحدي فأجهش في البكاء وأذرف الدمع غزيرًا.

(وكان لأبي بيت في فلوريدا يتردد عليه في فصل الشتاء. فبعث إلي بتذكرة طيارة ودعاني للحاق بأفراد الأسرة هناك. وكنت شديدة الرغبة في

تلبية دعوته؛ تفاديًا لزمهرير الشتاء هنا ورغبة في الوجود مع أهلي، لاسيما مع أبي. لقد كنت في طفولتي ابنته المدللة التي كان يؤثرها على سائر أخواتها. والآن وقد بلغ من العمر نهايته، كنت مشتاقة لقضاء بعض الوقت معه، ولكني عجزت عن اتخاذ قرار حاسم للسفر.. ست مرات حزمت فيها حقائبي وفي كل مرة كنت أعدل وأبعث ببرقية أعتذر فيها متذرعة بسبب من الأسباب. أما السبب الحقيقي فكان الإصابات المتكررة بالإسهال والقئ خلال أربع أو خمس ساعات وما يتبعهما من إغماء شديد الوطأة. وكان يخيل لي أنني في طريقي إلى الجنون ورغم ما كنت أعرفه في نفسي من الذكاء، فأنني لم أستطع تعليل ذلك. وقد لجأت إلى الأطباء ودخلت مستشفى (مونت سينا)، فكان يقال لي إنني خالية من الأمراض وعلي أن أترك هذه الأوهام).

(والآن قد مضى عامان لم أشتر في خلالهما قطعة واحدة من ملابسي، إذ كان زوجي هو الذي يقوم بهذه المهمة حتى شراء ملابسي الداخلية. ويدفع زوجي خمسة دولارات للحلاق ليأتي إلى البيت حتى لا أضطر للذهاب إليه. وأستأجر من يقضي حاجات البيت من السوق بدلًا مني. وكان كل هذا يزيد من شقائي وألم ضميري، لأنني كنت أكلف زوجي نفقات باهظة، رغم أنني كنت مصدر شقائه، وبرغم أنني كنت أحبه حبًّا لا مزيد عليه).

لقد كانت حالة هذه المرأة تستدر العطف والرثاء.. وبينما كانت تسرد علي قصتها والسكرتيرة تدون أقوالها، كانت لا تكف عن البكاء

وقد اعترفت أنها فكرت في الانتحار تخلصًا مما تلاقيه من العناء وما تسببه من التعاسة لزوجها. ومما ذكرته بهذه المناسبة قولها: (يستطيع على الأقل أن يتزوج بعدي من امرأة من دينه يحق له أن يعيش سعيدًا معها). ويتضح مما سبق أن السيدة (م) كانت تتألم من وخز الضمير والشعور بالإثم لزواجها من رجل من غير دينها، وقد أصبحت هذه الفكرة الثابتة وسواسًا دفعها إلى كبت رغبتها الجنسية. ولم يكن هذا الحادث فريدًا في بابه، فقد لقيت من المرضى عددًا يذكر ممن كان اختلاف الدين عندهم سبب توتر العلاقات الزوجية أو القضاء عليها. على أن هذه الحالات العديدة، لم يكن الشعور بالإثم فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية مع اختلاف الأديان السبب المباشر. كان هذا الشعور لا يحدث ألا عقب مرض أو هزة عصبية أو تعب في الجهاز العصبي. أي أن التعب جاء أولًا وتبعه الخوف ثم أخيرًا الشعور بالإثم أو وخز الضمير. ومعنى ذلك أن العقل بطبيعته يبحث عن مبرر فلا يجد أمامه فكرة يتشبث بها إلا أن اختلاف الأديان يجعل العلاقة الجنسية محرمة والاتصال الجنسي إثمًا، أي أن الشعور بالإثم في حالة السيدة (م) وفي جميع الحالات التي شهدتها لم يظهر إلا عقب التعب العصبي.

على أن حالة السيدة (م) كانت نهايتها سعيدة لقد كانت أولى زياراتها لي يوم اثنين ورافقتها أختها إلى عيادتي في نيويورك من إحدى الضواحي القريبة. وقد أوصيت الأخت أن ترافق المريضة إلى حين إلى أن تتقدم قليلًا في الشفاء، وحينئذ يجب حضورها بمفردها، كما ذكرت للمريضة أن عليها أن تواظب على العلاج يوميا. وفي اليوم التالي– الثلاثاء– حضرت ومعها أختها أيضًا. وفي اليوم الثالث– الأربعاء– جاءت بمفردها. وكان ذلك

اليوم أول مرة خرجت فيها من المنزل بغير أن يرافقها أحد في خلال سنوات ثلاث. وكاد يبلغ انفعالها درجة الهلع لوجودها في القطار الأرضي بين جم غفير من الناس بعد أن كانت في عزلة عنهم. وقد ابتاعت صحيفة يومية وأخذت تقرأ الإعلانات الضخمة عن المحال التجارية وتنتظر بفارغ الصبر موعد زيارتها لتلك المحال لشراء ملابسها.

وقد تم الشفاء لهذه السيدة في خمسة أسابيع، كان الناظر إليها في نهاية العلاج يخالها شخصًا آخر وزالت عنها الفكرة الثابتة والشعور بالإثم في علاقتها الجنسية مع زوجها. فأصبح الزوجان عاشقين من جديد. ولم تتطلب حالة المريضة تحليلًا لا نهاية له ولا تنقيبًا عن علاقتها بوالديها في طفولتها. لم يكن هناك داع لشيء من هذا. كل ما حدث أن الدواء أنقذها من نوبات التعب العصبي الذي كان يصيبها والعلاج النفساني ساعدها على تفهم أحاسيسها وبذلك ذاب الخوف والشعور بالإثم كما تذوب الثلوج أمام أشعة الشمس الحارة. أما ما حدث بعد ذلك فمن فعل الطبيعة والطبيعة خير طبيب معالج.

العنة...

إن حياة الرجل الجنسية لا يأفل نجمها أبدًا؛ فالكثير من الرجال في سن السبعين يبلغ في حياته الجنسية من النشاط والصحة والقوة درجة يحسده عليها رجل في الخامسة والثلاثين. كما أن هناك الكثير من الرجال في مقتبل العمر وفي عنفوان الصحة البدنية من فقد قوته الجنسية وأصبح

عنينًا بكل معاني الكلمة. والأطباء يعرفون هذا كل المعرفة، ولعل نسبة كبيرة من هؤلاء من ذوي المهن الشريفة الكبرى وكأن الحضارة أرادت لهم أن يدفعوا ثمنًا باهظًا لما حازوه من النجاح المهني والمال. وسبب إصابة هؤلاء بالعنة استنفاد الطاقة في جهازهم العصبي. وكان العامل الأكبر في هذا سرعة الحركة في الحياة الحديثة وشدة التنافس والإجهاد المتواصل في تصريف الأعمال المتراكمة، والمسؤوليات المالية وما يترتب عليها من هم وقلق. إن أعظم منافس للزوجة ليست الفتاة الشقراء التي تعمل في مكتب زوجها وإنما ذلك المنافس العنيد، قوي الشكيمة، هو عمله، مهنته، وظيفته.

وكثيرًا ما يكون البول السكري والبدانة من أسباب العنة. كذلك قد يكون من أسبابها مقاطعة الرجل للحياة الجنسية زمنًا طويلًا. بيد أن أهم أسباب هذا الداء إنهاك القوى بسبب الإجهاد في العمل والقلق والهم وتوتر الأعصاب والخوف. وهذه الأسباب لا تفرق بين الأعمار إذ أن الشيخ والشاب أمامها سيان.

ومن المشاهد أن عددًا من الرجال يُصاب بالعنة في مستهل الحياة الزوجية ولكن هذه الإصابة تكون عادة مؤقتة. ومن أسبابها عصبية المزاج والجبن والخجل عند الاتصال الجنسى. وهذه تزول عادة بالعلاج. ويقول دكتور تشارلس كلنتون في كتابه (السلوك الجنسي في الزواج): (كم من رجل سليم البنية، ممتلئ قوة ونشاطاً، كفء للقيام بواجباته الزوجية الجنسية، يجد نفسه عاجزًا (عنينًا) بسبب انفعال ينتابه أثناء القيام بهذه

الواجبات). وهذا الانفعال يكون عادة الخوف الذي يرتبط في ذهن صاحبه بالعملية الجنسية وهذه العنة الوقتية نفسية لا بدنية.. وهذا الخوف لا يختلف عن غيره من الأنواع التي سبق ذكرها.

وقد يكون الخوف خلال الاتصال الجنسي سببًا في عجز المرأة بلوغ النهاية Orgasm والواقع أن هذا كثير الوقوع بين النساء ويستلل من السجلات الطبية أن نسبة ضئيلة من السيدات المتزوجات حديثًا تبلغ هذه النهاية أو تعرف شيئًا عنها في شهر العسل أو حتى بعد ذلك بشهور. وينبغي أن نذكر أن العملية الجنسية تستدعي فهمًا وخبرة وليست عملًا يدرك بالفطرة والغريزة. كما ينبغي أن نذكر أن بلوغ المرأة هذه النهاية ليس مقياسًا للسعادة الزوجية أو عدمها. إن خوف المرأة أو شدة حيائها من هذه العملية يمكن التغلب عليهما تدريجًا إذا ما التزم الزوج الرقة واللطف وحسن السياسة مع الزوجة أو إذا استدعى الحال، عرضها على الطبيب لعلاج الجهاز العصبي بالطريقة التي وصفت وأهم ما ينبغي للزوج مراعاته ألا يشكو من خجل الزوجة أو خوفها في مثل هذه الظروف وألا يدخل في ذهنها أنها عاجزة عن بلوغ النهاية. فهناك عدد لا يستهان به من النساء اللاتي عشن طول العمر مع أزواجهن بغير أن تتم معهن العملية الجنسية مرة واحدة، ومع ذلك كانت حياتهم الزوجية سعيدة. إن هذه الفكرة ككل فكرة أخرى ثابتة، منشؤها الخوف بسبب التعب العصبي أن الرجل– أو المرأة– الذي يشكو من ضعف الأعصاب والخجل ويشعر بعدم الطمأنينة ويركز فكره على الدوام في ذاته– لا يمكن أن يشفى من هذه الاضطرابات النفسية بالاتصال الجنسي والانغماس فيه. لقد شهدت

عددًا كبيرًا من المرضى الذين قضوا سنوات عولجوا فيها بالتحليل النفساني وقد نصح لهم إما أن يتزوجوا أو أن يتخذوا لهم خليلة، أو يعاشروا امرأة غير الزوجة إذا كانوا متزوجين. وقد بررت لهم هذه النصيحة بأن إشباع الرغبات والميول الجنسية والانغماس فيها يريح المريض من متاعبه النفسية ويزيح عن أعصابه التوتر.

وقد اتبع بعض المرضى هذه النصيحة بحذافيرها، ولكن واحدًا منهم– أو واحدة– لم يشف من مزاجه العصبي أو خوفه. أما النصف الآخر الذي لم يؤمن بهذا النوع من العلاج، فقد صفعته هذه النصيحة واحتج ثائرًا على مجرد التوصية بها.

إن العلاقات الجنسية، سواء أكانت بواسطة الزواج أم خارجة عنه، لا تشفي مريضًا من الخوف أو الانهيار العصبي، ولم يحدث فعلًا أنها كانت سببًا في شفاء مريض. كذلك تنصح المرأة في كثير من الأحوال أن تحمل حتى تشفي من مرضها النفسي.. إن مثل هذه النصيحة جريمة تستوجب العقوبة. إن الحمل والولادة بطبيعتهما تستنزفان الطاقة العصبية وبذلك تزداد الطينة بلة. يضاف إلى ذلك أن المرأة المصابة بمرض عقلي ليست كفؤًا أن تكون أما؛ لأن معنى هذا أن الطفل يصبح فريسة لعصاب أمه منذ أن يكون جنينًا في الرحم.

وبهذه المناسبة نترك مريضة تقص علينا حالتها:

(مضى الآن علي أربع سنوات وأنا أعاني مرضًا نفسيًّا. أشكو بدون انقطاع من ضعف في المعدة والساقين وأتألم من توالي نوبات الإسهال. كنت أخاف أن أخرج بمفردي أو أسير بضعة أقدام بغير أن يرافقني أحد وكنت أشعر في كل حين تقريبًا أنني في حاجة إلى الذهاب إلى المرحاض. وقبل أن يولد طفلي البكر كنت كلما قرأت خبرًا في الصحف أو سمعته يخيل لي أنه خاص بي أو أنني التي فعلت ذلك الشيء. وقد استشرت عدة أطباء في نيويورك وفي الضاحية التي نسكنها بلا جدوى. وكنت أتشاجر مع زوجي كل الوقت وكان يتفوه بأقوال تمس كرامة أهلي وكنت لا أرد عليه كثيرًا غير أنني كنت أشعر بالامتعاض والهزيمة).

(وأشار علي الطبيب ذات يوم أن أترك زوجي وابني وأرحل إلى مكان ما بعيدًا عنهما، طلبًا للراحة ونصح لي أن أستشير الطبيب (س) مدير مستشفى الأمراض العقلية في ذلك المكان. ولما زرته رجوته أن يدخلني المستشفى للعلاج. وكان يشغل بالي في ذلك الحين بنت صغيرة كانت تلعب مع ابني. فقد كانت هناك فكرة تساورني بخصوصها غاية في الغرابة والإبهام. فقد كان يبدو لي أنني أريد إما أن أحبها أو أؤذيها. أما من حيث الدكتور (س) فقد أخبرني أنني لست في حاجة إلى العلاج الذي يتبع في مستشفاه. ولكني توسلت إليه ورجوته بإلحاح فقبل إدخالي وعلاجي مدة أربعة أسابيع تحت التجربة. وبعد أن أدخلت إبني مدرسة حضانة داخلية دخلت المستشفى. وفي طريقي إلى هناك كان زوجي يسب ويلعن ويرغي ويزيد ولكني لم أعبأ به. وكنت أقول لنفسي إنني سأعود إلى حالتي الصحية الأولى وأكون أمًّا مثالية لإبني).

(وكان يخيفني في المستشفى النوافذ المغطاة بالأسلاك الحديدية والأبواب المغلقة بالمفاتيح، غير أن الممرضة أفهمتني أن هذه الاحتياطات لم تتخذ إلا لصالح المرضى الذين تتطلب حالاتهم تقييد حريتهم. وكنت أحيانًا أسمع المرضى يصرخون بأعلى أصواتهم في الطابق السادس فكنت أخاف منهم، وكنت أشعر أحيانًا أنني أريد أن أصرخ مثلهم كذلك كنت أحس برغبة شديدة في داخلي تدفعني إلى طعن أحد الناس بعصا (بلياردو). ولما سألت الطبيبة عن سبب ذلك، قالت إنني أحس بهذا لأنني مذنبة ولما سألتها عن نوع الذنب، قالت إنني أدرى به. وكنت لا آتمن نفسي على وضع كرة في يدي خشية أن أوذي أحدًا. غير أن هذا الشعور كان يزول عني ليلًا عندما كان ينتابني كابوس يشتد فيه صراخي. وكنت إذا استيقظت بعد ذلك استأنفت الصراخ بأعلى صوت ممكن ولما سألت الطبيبة في ذلك نظرت إلى نظرة مضحكة فأحسست أنني مذنبة).

(وبعد أن مكثت في المستشفى شهرين اتضح لي أنني حبلى وأدركت حينئذ أن الحمل بدأ عندما كنت في رحلة مع زوجي في عطلة آخر الأسبوع، ولما أبلغت الأطباء بذلك، قالوا: افعلي ما تشائين. وأبقوني في المستشفى إلى أن أيقنوا أنني حبلى حقيقة... حينئذ نصحوا لي أن أعود إلى زوجي أو أهلي. فاخترت العودة إلى زوجي وابني. وقد سُئلت مرة إذا كنت أريد الطلاق، فقلت إنى أوثر الموت على أن أضع إبني في موقف كهذا. ولما علم زوجي بأنني حبلى تبدل حاله نوعًا ما؛ لأنه يعلم أن ولادتي الأولى كانت عسيرة جدًّا. فأخذني إلى بيت فيه غرف معدة للإيجار للبقاء هناك وكنت لا أقوم بأي عمل في ذلك البيت. على أنني كنت أشعر برغبة مريعة

تدفعني إلى طعن نفسي بسكينة كنت أراها دائمًا في المطبخ وكنت أرى إبني من حين إلى حين ولكني كنت حزينة، منهارة الأعصاب. وكنت أخاف من أن أكون قد ارتكبت أمرًا مع ابن صاحبة البيت. وكثيرا ما كانت تساورني أفكارًا غريبة كهذه. كذلك كنت أشعر بأحاسيس غريبة جدا عقب خروجي من المستشفى. ولا يمكن أن يتصور إنسان كيف يشعر المريض بعد أن يكون في حجرة مغلقة طول الوقت ثم يخرج إلى عالم الحرية ولا يمكن أن أعبر عن هذا تعبيرًا صحيحًا. كل ما أستطيع أن أقوله إن المريض في ذلك المستشفى يخيل إليه أنه ليس بشرًا وليس كسائر بني الإنسان).

(ولما عدت إلى البيت، استدعيت خادمتي القديمة لاستئناف العمل معنا والتزمت السكون والراحة، متبعة نصائح الطبيب الأخصائي في الولادة وكنت أقضي أطول ساعات ممكنة في الشمس وأحضرت إبني من الحضانة. وكان زوجي يحسن معاملتي وبدأت أشعر بتحسن في قوتي. وكان الطبيب قد نصح لي أن أستريح ولا أجهد نفسي في شيء. ولكني بدأت بعد ذلك أتريض بالمشي قليلًا عدة أقدام ثم أخذت أتمشى في الخلاء برفقة إبني الفينة بعد الفينة بعد أن كنت لا أستطيع أن أمشي خطوات بمفردي. كنت أشتري حاجاتي بالتليفون لأنني كنت أخشى الخروج، رغم قرب المحال التجارية من البيت وإذا أردت من الخياط شيئا– وهو على بعد خطوات من المنزل– كانت فرائصي ترتعد وأسارع مهرولة إلى البيت خوفًا من أن أعجز عن العودة قبل الوقت الملائم).

(وأخيرًا تم الوضع بسلام وكنت أنام نومًا هادئًا عميقًا معظم الوقت. غير أن خوفي القديم من أن أُصيب الطفل بأذى كان يعاودني. كذلك الشعور بالإثم، وقد اضطر زوجي ذات ليلة أن يستدعي الممرضة من المستشفى لتهدئتي وكنت أخاف أن يسقط الطفل من يدي فيصاب بحادث.. وكنت أخاف أن تكتم أنفاس الطفل أثناء الليل وبدأت أشعر بألم في ساقي. ثم انتقلنا إلى بيت آخر. وقد كثر انتقالنا بالرغم من أن هذا لم يكن في صالح العمل الذي يرتزق منه زوجي. وقبل أن يبلغ إبني الثاني الشهر السابع من عمره حملت مرة أخرى).

وفي خلال الحمل كانت صحة المريضة حسنة والولادة سهلة. ولكن حدث بعد ولادة طفلها الثالث أن مات شقيقها، فعادت إليها المخاوف القديمة وعدم الوثوق في نفسها وشعور عنيف بالإثم. ولندعها الآن تستأنف قصتها:

(وأصبح الآن من العسير على زوجي أن يعيش معي. وحتى الاتصال الجنسي كنت أعده إثمًا لا يغتفر؛ لأن شقيقي قد حرم حقه من الحياة. ومنذ ذلك الحين أصبحت الحياة الجنسية عندي حرامًا محرمًا. وقد زاد على مرضي شئ آخر وهو رغبتي في عمل الأشياء مرارًا وتكرارًا وأصبحت أرثى لحال كل شخص وكل شيء. وكنت لا أطيق أن أفرط في شيء مما عندي حتى الخرقة القديمة الممزقة، لأنني كنت أشفق عليها وأخاف ألا يعاملها الغير بالحسنى. وبلغ مني الأمر أنني كنت أشفق على الفضلات والمهملات في صندوق (الزبالة). وقد تكون لدي شعور غريب كان يدفعني إلى قراءة

الوفيات في الصحف. فإذا كنت مشغولة عند وصول الجرائد، كنت احتفظ بها لقراءتها بعد فراغي من العمل).

(وبعد موت أخي مباشرة، بدأت أشعر برغبتي في أن يموت الناس جميعًا حتى يتألم ذووهم كما كنت أنا وأمي نتألم).

(وكلما شعرت بدافع يضطرني لعمل شيء، كان يخيل إلي أن روح شقيقي متغلغلة فيَّ تدفعني لعمل ذلك الشيء. وإذا وضعت يدي على شيء أحس بدافع يضطرني إلى أخذه. مثال ذلك أنني إذا أردت شراء سلعة ثم أعدتها إلى مكانها لتفضيل سلعة أخرى عليها، اضطر لشراء الاثنتين، بالرغم من عدم حاجتي للسلعة الأولى. ووضعت لنفسي قانونًا لا أحيد عنه وهو أن أعمل الشيء مرتين، زعمًا مني أن هذا أسرع في إنجاز عملي وقد شمل هذا كل شيء: الاستحمام، تنظيف الأواني، طهي الطعام، وتخطي عتبة كل حجرة أدخلها وحياكة الثياب، وحتى تقبيل زوجي أو الأطفال وكان طبيعيا، كما يتبين مما سبق، أن أكون متعبة، مشمئزة من نفسي ومما وصلت إليه حالتي. كنت أخشى أن أسبب ضررًا لأي شيء. فإذا أردت أخذ شيء من الثلاجة الكهربائية، وكان هذا الشيء في المؤخرة كنت أضطر إلى رفع كل شيء أمامه حتى لا تكون هناك فرصة لإيذائه. وإذا سمعت بموت أحد ساورني الخوف وشعرت أن من واجبي عمل شيء، كأن أشبك قدمي الواحدة بالأخرى مرات عديدة. وكنت أتصور أن الأشياء الجامدة تدب فيها الحياة. لذلك امتنعت عن حياكة الثياب؛

لإشفاقي على الخيط داخل القماش وخفت أن أتتبع الرسم أو النموذج عليه خشية أن تؤلمه الإبرة).

(ولما كنت شديدة الرغبة في نيل الشهادة الثانوية، تقدمت للامتحان ونجحت وكانت درجاتي فوق المتوسط ونلت الدبلوم. كنت أخاف لأنني لم أتثقف التثقيف الكامل كبقية الناس. ولما جلست في حجرة الامتحان شعرت بالخوف. وقلت لنفسي: ما شأني والامتحان، وقد مات أخي قبل أن ينال الدبلوم؟ وقلت هذا لأطفالي فشجعوني على ارتداء ملابسي والذهاب للامتحان، فذهبت مبررة ذهابي بأن الدبلوم الذي سأناله سيكون لي ولأخي. وكثيرًا ما خطر ببالي أن أضع اسمه بجانب اسمي. وكثيرًا ما نصح لي أن أحمل مرة أخرى ولكني خشيت الحمل. فهل تظن أنني أتحسن إذا أقدمت على ذلك؟).

كانت هذه المريضة تشكو من هذه المخاوف وتلك الأعمال التكرارية التسلطية عندما جاءت لاستشارتي. وهي نتيجة مرض دام أكثر من ١٥ سنة وتعب عصبي، فضلا عن أن الأطباء الذين لجأت إليهم لم يحاولوا أن يفهموا حالتها أو أن يعالجوها العلاج الذي يتطلبه المرض. وكانت حياتها مع زوجها سببا في شقائها لم يذق الزوج المسكين طعم الحياة الزوجية السعيدة يومًا واحدًا، ولم يجد الأطفال البيئة الصالحة التي فيها ينمون ويترعرعون، ولا يسع المرء إلا أن يبدي رأيه في أطباء ذلك المستشفى الكبير الذي توافرت فيه كل وسائل العلاج، وينحى عليهم باللائمة لعدم اتصالهم بزوج المريضة وإيقافه على خطورة حالتها– وهو

رجل ذكي مثقف من ذوي المهن الكبرى– لاسيما فيما يتعلق بالحمل بالمولود الثاني الذي كانت صحتها البدنية والعقلية لا تساعدها عليه.

فلو أن تشخيص مرضها عند دخولها مستشفى الأمراض العقلية كان صحيحا وعولجت علاجا يرفع من طاقتها العصبية ويزيل عنها شبح الخوف الذي انتابها عقب ولادتها الأولى العسيرة، لما وقعت فريسة للمخاوف الأخرى التي ابتليت بها إثر وفاة أخيها ولما نسج العنكبوت حولها نسيج الأعمال التسلطية التي كادت تكتم أنفاسها وتشل حركتها.

أثر التربية الجنسية...

تكلمنا في فصل سابق عن الميول الجنسية الشاذة التي تنشأ عن نمو الصبي في بيئة نسائية وكيف أن دوام مرافقته لأمه دون أبيه وتقربه منها تقتل فيه رغبة حب الاستطلاع فيما يختص بجسم الجنس الآخر وما يحيط به من غموض، وتدفعه إلى التطلع إلى غيره من الذكور. والصبي الذي يلقنه ذووه منذ صغره أن الميول الجنسية مصدر الشر والرذيلة وأنها من أحط الطبائع الإنسانية، قلما يشب رجلًا سويًّا، كفؤًا للزواج والانسجام مع شريكة حياته. ومثل هذا النوع من التربية الجنسية لا يكون أثره على البنت بأفضل من أثره على الصبي، فلا هذا ولا تلك يجد الزواج أمرا ميسورا. إن الرجل الذي ينشأ في البيئة التي وصفناها، تثبت في ذهنه تلك الفكرة الخاطئة عن الميل الجنسي، فلا يمكن أن يستمتع بالحياة الجنسية مع زوجة مهما بلغت درجة حبه واحترامه لها. وقد يشعر– كما يحدث كثيرا–

أن في اتصاله الجنسي بها تحقيرًا لها. ويدفعه هذا الشعور إلى الالتجاء إلى البغايا؛ لأن البغي ومن في طبقتها هي المرأة الوحيدة التي يستطيع الاتصال بها بغير أن يستولى عليه الخجل والاستحياء وبغير أن يؤلمه ضميره. ومثل هذه الأفكار الثابتة التي تعلق بأذهان بعض الذكور بشأن الميل الجنسي، تتطلب علاجًا أسوة بالوساوس وأنواع العصاب التسلطي التى تحدثنا عنها واللواط[٨] يمكن أن يكون أيضًا وسواسًا ويستجيب للعلاج كغيره من أنواع الوسواس. وقد سألت مرة مريضًا جاء يطلب العلاج للتخلص من هذا الداء، كيف بدأ وما الظروف التي دفعت به إلى هذا المسلك؟ فكان جوابه أن السبب اقتصادي محض ولا علاقة له بأي شيء آخر. لم يكن أهله من ذوي اليسار. حقيقة أنهم أتاحوا له فرصة الالتحاق بجامعة هارفارد ولكنهم لم يستطيعوا تزويده بالمال اللازم لنفقاته الخاصة أثناء حياته الجامعية. وبين لي كيف أن الحياة الاجتماعية السليمة مع أفراد الجنس اللطيف تكلف نفقات باهظة لا سبيل إلى تحملها.. فدعوة زميلة لاصطحابها إلى دار التمثيل وتناول العشاء وقضاء السهرة تتطلب مالًا.. هذا إلى أن الفتاة تنتظر عادة باقة من الزهور ومكانًا محترمًا في الحفلات والعودة في نهايتها في سيارة أجرة. ولما كان هذا مستحيلًا لضيق ذات يده، كان لابد له أن يكتفي بقضاء السهر في إحدى دور السينما أو التمثيل والعشاء وما إلى ذلك مع صديق، فيدفع كل منهما حسابه وهذا لا يكلف كثيرا. لذلك

---

(٨) المترجم- يقصد بهذه العبارة في المصطلحات العلمية ميل الذكور للذكور، سواء أكان ذلك الميل ينتهى باتصال جنسى فقط. أم مجرد أشباع رغبة جنسية بالنظر أو المصادقة ألخ ويقابل ذلك في الإناث (السحاق).

كان يبحث عن زميل مثله لا يهمه صحبة الفتيات. وهنا أضاف على ذلك قوله: (هذا ما دفعني إلى أن أكون هكذا).

وبهذه المناسبة نذكر شيئًا عن العادة السرية من الإحصاءات التي جمعتها عن مرضاي. أن ٧٥% منهم على الأقل مارسوا هذه العادة يومًا ما. والكثير منهم رجال مثقفون ونساء مثقفات لا يزالون يمارسونها، وتدل سيرة حياة عدد يذكر منهم أن هذه العادة تشعرهم بالإثم وبأنهم يرتكبون خطيئة تؤنبهم عليها ضمائرهم.

ومن عادتي أن أصرح لمرضاي بأنها عادة ذميمة وينبغي الكف عنها، إلا أنها خالية من كل خطر ولا تسبب لمن يمارسها جنونًا كما يعتقد الكثيرون. وفي الحالات التي تكون فيها هذه العادة عصابا تسلطيا تكراريا، ينبغي علاجها كما يعالج كل عصاب تسلطي آخر.

ولعل أخطر ما في العادة السرية خوف صاحبها وشعوره بالإثم والخجل؛ وهذا الخوف والشعور بارتكاب الإثم يترك في نفس صاحبها أثرا أبعد غورًا من العادة ذاتها.